العرب
الأحد 2021/01/17
السنة 43 العدد 11943

قتلة لا نجدهم مطلقا في قفص الاتهام

الأنثروبولوجيا تقدم صورة جديدة لأخطر المجرمين

أول مـا يتبادر إلى الذهن، عند ذكر الجلاد، صـورة رجل غليظ القلب لا يعرف الرحمة، ولا توحي ملامحه بغير القسـوة، فهو في المخيال الجمعي ضخم الجثّة، قويّ البنية، تنضح نظراته بشـهوة الدم، وتزفر رائحته السّمّ الزعاف. ولكنها فـي الواقع صورة مضللة، فالجلاد قد يكون رجلا عاديّا وربَّ أسـرة، يروح ويغدو إلى عمله كسـائر خلق الله، وله مثلهم طموحاتٌ دنيوية بسيطة.

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

تذكر كتب التاريخ الحديث أنّ ستالين أباد خمسين مليون نسـمة، وماو تسي تونغ سـتّة وثلاثين مليونا، وهتلر نحو عشـرين مليونا، بينما اكتفى ليوبولد الثاني بعشـرة ملايين، حتى ليبدو بولْ بوتْ وبينوشي وبوكاسّا ومنغستو هيلا مريام أمامهم مجرّد هواة.

تلك الأعـداد المهولة لم تقض نحبها بأيدي القـادة المذكورين مباشـرة، فهم يُصدرون أوامـر القتل والإبادة، ولكـن التنفيذ يبقـى موكولا للقوات النظامية والجلادين.

وإذا كان الجنود يخوضون حروبا ضدّ جيوش أخرى لا يعرفون في الغالب هويّة مقاتليها ولا يرون ملامحهم، فإن الجلادين يباشرون عملهم عن قرب، ويعرفون حقّ المعرفة هويّة من هم بصدد تعذيبهم وتصفيتهم. فكيف يقبلون بأن يكونوا منفذي عمليـات قتـل جماعية، وسـفّاحين يذبحون بشرا مثلهم وكأنهم في مسلخ؟ ومـا الذي يميـز الحيـاة العادية لرجل مهمتـه الأساسـية واليوميـة موجهـة بتمامهـا وكمالها نحو قتل البشـر على نطاق واسـع؟ هل يمكن أن يحافظ رجل كهذا على صفته الإنسانية؟

أدوات لتسليط الموت

في كتـاب "الحياة العاديـة لمقترفي الإبـادة الجماعيـة"، يعالـج عالـم الأنثروبولوجيـا والتحليـل النفسـي ريشار ريشـتمان هذه المسألة من زاوية "الثاناتوس السياسي"، ويرى أن الحياة العاديـة للجلاد هي تسـليط الموت، وأن الذيـن يرضون عـن تنفيذ ذلـك العنف الشـنيع هم بشـر، ينظرون إلى أنفسهم كذلـك، فلا هـم منحرفـون ولا وحوش، وإنما هم أنـاس عاديون تحدوهم إرادة أداء الواجب الـذي انتخبوا لأجله على أحسن وجه.

من خلال دراسة أنماط الحياة الأكثر عاديـة للرجـال والنسـاء الذيـن قبلوا بتقديم خدماتهم للأنظمة الأشـدّ بطشـا في التاريخ الحديث، توسّـل ريشـتمان بالأنثروبولوجيـا العامّـة للإحاطـة بالظروف الاجتماعية والسياسـية التي كان لهـا دور فـي الموافقـات الفرديـة لتسليط الموت على الغير. ذلك أن معرفة الأسـباب التـي تجعل ممارسـة العنف ممكنة، سـؤالٌ لا يزال يُطرح باسـتمرار خاصـة إذا ما سُـلّط ذلك العنف بشـكل شامل واتّخذ صبغة الإبادة الجماعيّة.

اسـتفاد المؤلـف مـن كـمّ هائل من الوثائق، من أرشـيف المحاكمات الدولية إلـى الروايات والسـير الذاتيـة، مثلما اسـتفاد من ممارسته الكلينيكية وكشفه علـى عدد من اللاجئـين الذين نجوا من المـوت، وحتـى مـن جلادين سـابقين، وأغلبهـم من مواطن النزاع في الشـرق الأوسط وجنوب شرق آسيا.

وأوضـح المؤلف أن هدفه من تحليل نيّة الإبـادة هو الوقوف على الآثار التي تتضمنها السـرود والسلوك والأعراض وحتـى لـزوم الضحايـا والجلاديـن الصمـت في عيادته. من خلال تلك الآثار أمكنه التعرف على ما أسماه "الاقتصاد اليومـي لإدارة الإبـادة"، والكشـف عن نسـيج حكاية جماعية عابـرة للحدود، فتسـليط الموت يكتسـي من حيـث بنيته الطابع نفسـه فـي أكثـر من مـكان، برغـم تبايـن الثقافات واختـلاف الفضاءات الجغرافيـة، إذ إن نزعـة "الثاناتوس السياسي" حيثما تبـدّت، تعتمـد المشاركة الفعلية للمنفّذين الذين نـذروا حياتهم اليومية لإزهاق الأرواح والتصرف في الأجساد، منذ اختيار الأصناف البشرية "الواجب إبادتها" إلى معالجة الجثث التي ينبغي التخلص منها.

فمـن هم أولئـك المنفّـذون؟ وما هي ملامحهم وخصائصهم؟ ولمـاذا يقبلون ذلك القتل الجماعي؟

صورة الجلاد

لقـد شـغلت تلـك الأسـئلة حقـولا معرفيـة كثيـرة، كالفلسـفة والتاريـخ والقانـون وعلم النفـس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيـا، ورغـم اختـلاف الأجوبـة باختـلاف التخصصات، برزت ثلاثة تأويلات: أولها يضفـي علـى الجلاد ملامح شـخص ساديّ متعطش لسـفك الدّماء فإذا هو أشـبه بوحش آدميّ. وثانيها يرى فيما يقترفـه الجـلاد أعراض انحطاط حضاريّ. وثالثها يشبّهه بإنسان عاديّ أدركه نظام أخلاقي جديد جوهرُه قاتل.

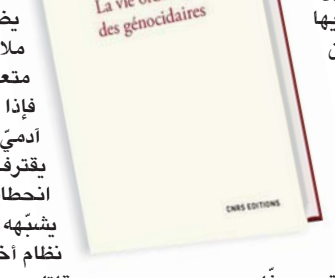

ولئن كانت صـورة الجلاد الذي فقد كلّ حـسّ إنسـانيّ تبهر بقـدر ما تثير الاشـمئزاز، لأن منهـم من جعـل العنف مشـروع حياة، فإنها لا تعكس الحقيقة كلها. صحيح أن بعض مظاهر القسـوة لا يخلو من عقلانية ومنهجية، ويكتسي أحيانا طابع الطقـوس والعادات، حتى أنـه يبدو لـدى الجلادين إطـارا لهياج الغرائـز، وهو ما سـبق أن بيّنـه عالم الاجتمـاع الألماني فولفغانغ سوفسـكي حين لاحظ أن بعض السّـفاحين يجدون لذّة في القتل لإحساسـهم بأنهم "أسياد الموت".

غيـر أن ذلك قد ينطبـق على القتلة، الذين لـم تبلغ جرائمهم على مرّ التاريخ مقـدار ما بلغته الإبـادات الجماعية في النصـف الأول من القرن العشـرين، ولا ينطبـق تماما على مرتكـب الإبادة، وقد كشفت دراسةُ الظروف الاجتماعية التي وقعت فيهـا يوميّا جرائـم قتل جماعي أن تصوُّرنـا للجلادين يخضـع لمخيال تغذيـه أعمـال أدبية أكثر ممـا يتجلى في الاشتغال المحسـوس لإدارة الإبادة. أي أنّ لمرتكـب الإبـادة الجماعية دوافع أخرى، وشخصية مغايرة.

لذلك عمد ريشـتمان إلـى تفكيك تلك الصورة بالعودة إلـى نظرية فرويد عن الغرائـز، واسـتحضار الثقافـة أيضا، فالرأي القائل إن لدى الإنسان "مخزونا نفسانيّا كامنا بالقوة" قد يغذّي الشراهة للحرب مجانب للصواب في جانب كبير منـه، فـلا يمكـن أن نعـزو كل الأعمال العنيفـة زمن الحرب إلى غريزة العدوان وحدهـا، بل لا بدّ من النظر في تشـعب النزعـات ومعرفـة مـا إذا كان القانون والعنف متصلـين، وفي أي اتجاه يعمل ترابطهما.

ومـا الرسـالة التي وجههـا فرويد عـام 1932 إلـى ألبرت أينشـتاين حول الوسائل الواجب وضعها لمقاومة "النهم السياسـي للقوة" و"الحاجة إلى الحقد والتدمير" اللذين اسـتبدا بالبشـر، إلا دليـل علـى أن ثنائية نزعات الإنسـان لا تنحصـر في مبـدأي الخير والشـر، فقـد تسـاهم في الحـرب والدّمـار وقد تقـدّم أعمالا جليلة، وفـي رأي فرويد أن نزعات الإيروس هي التي يمكن أن تضع نفسـها في خدمـة أعمال فظيعـة، وأن "الأنـا الأعلى" قد يكـون انزياحا لغريزة عدوانية موجهة إلى الداخل، فهو يعمل على تعديل النزعـات ولكنه يمكن أيضا أن يأخذ شكلا قاتلا ومدمّرا. ما يعني أن تأويل جرائم الإبـادة الجماعية كعرض من أعراض العودة إلى الهمجية لا يمكن الأخذ به.

صحيـح أن الثقافة يمكن أن تحدّ أو تعدّل نزعات التدمير وتساهم في تطوير "إيتوس" (الطبع المشـترك بـين جماعة تنتسب إلى مجتمع بعينه) مسالم، ولكن التحولات النفسـانية التي يفضي إليها ذلك التطور ليست مضمونة.

وإذا كان لا بـدّ مـن توجيـه إصبع الاتهـام إلى الحضـارة، كمـا فعل عالم الاجتمـاع الألمانـي نوربـرت إلياس، وكان قد عزا جرائـم النازية إلى انهيار حضـاري، فإنه لا يمكن أن يتمّ من زاوية تلطيـف الطبائـع والعـادات فقط، لأن ذلـك معناه وضع الحضـارة تحت راية الإيـروس وتجاهل قـدرة الأنـا الأعلى على النزوع إلى العنف الأشـدّ ضراوة، ما يجعل إدارة الإبادة قائمة على تنظيم محكـم يتطلـب رباطـة جـأش فـي كل الأوقات.

والأمثلة التي يسـوقها ريشـتمان تبـين كيـف أن الرجال والنسـاء الذين ينفّذون الإبـادة لا يخضعون لنزعاتهم، وأنهم واعون تمـام الوعي بما يفعلون، وأن اهتمامهـم اليومـي لا يخـص الضحايـا، الذيـن لا يصنّفـون كذلـك، بل يتوجّه أساسـا إلى تطويـر المعدّات اللوجيستية التي تنظم عملية الإبادة.

العنف الجهادي

ينفي ريشـتمان أن يكـون القائمون بتلك المهمة القذرة أناسا عاديين دفعتهم ظروف خاصة إلى ارتكاب تلك الجرائم، ويسـاير جزئيا ما ذهب إليه كريستوف برونينـغ وحنا أرندت حـول قوة تأثير الأنظمة الشمولية على الأفراد، وإقناعهم بشـرعية إبادة جماعات بشرية، ولكنه لا يوافقهما في اعتبـار القاتل مجرّد منفذ لأوامـر عليـا، لأن نظريـة اللاراهنية لا تفسـر الظـروف الاجتماعيـة والفردية التي تجعل فئة من البشر لا تبالي بموت الآخرين.

وفـي رأيه أن السـؤال الذي تطرحه تلك الجرائم الجماعية هو ما مسؤولية المنفذيـن، وقبولهـم أن يكونـوا عمَلة بسـطاء لإزهاق الأرواح؟ والغريب أن مـن النـادر أن نجد هـؤلاء القتلة في قفص الاتهـام، المخصص فـي العادة لأصحـاب الأوامـر، كما هو الشـأن في المثالين الكمبودي والإندونيسي، والحال أنهم الأداة الأساسـية فـي "الثاناتوس السياسي" الذي وضعته الأنظمة المُبيدة. وريشتمان لا يهتم بصفاتهم وأوضاعهم ودوافعهم بقدر ما يهتم بنمط الحياة الذي وضعهم فيه قبولهم اللامشروط، للإمساك بطبيعة الحياة التي يحيونها وقد غدت رتابتها متصلة بالموت، إلى جانب عالمهم اللغوي، وعلاقتهم بجيرانهم، ليلج ما أسمته عالمة التحليل النفسي نتالي زالتمان "الواقع الجديد"، وهو واقع نفساني اجتماعي يتميز فيه صاحبه بتمنّعه عن أي فكر نقدي. فالذين يديرون الموت يؤدون مهمتهـم بوعي تام وحرفية عاليـة، ويظهرون اسـتعدادهم وعنايتهم بالتفاصيـل، ويواظبـون علـى تنفيذ ما يُطلب منهم دون نقاش، أي أنهم يروحون ويجيئـون كسـائر العمـال والموظفـين، ويعيشـون مع أسـرهم وأبنائهـم حياة عادية.

والخلاصة التي ينتهي إليها ريشتمان هي أن تدمير الإنسـان يمكـن أن يمارس في ظـروف سياسـية واجتماعية تؤطره وتسنده، دون شـغف أو شخصنة، ودون حمـاس أو كره أيضا، إذ إن اللامبالاة هي العنصر الطاغي في سلوك المنفذين.

والمؤلـف يربـط تلـك الممارسـات بأشـكال العنف الجهادي، الـذي غالبا ما يُحسَـب علـى الراديكاليـة، والحال أن ممارسـات المنفذين، فـي رأيه، قريبة مـن جرائـم الإبـادة، بصـرف النظـر عـن الأيديولوجيـا التي ترتكـز عليها. فالجهاديـون يقبلون هـم أيضا بتنفيذ أوامر عليـا، دون نقـاش، ودون مبالاة بـالأرواح التي يزهقونهـا، ما يعني أن الأسـاليب هي نفسـها فـي كل عمليات التصفية.

وإذ يلفت الانتباه إلـى تلك الأبعاد، فإنـه ينتقد الشـكوك التـي تحوم حول أبنـاء المسـلمين المقيمـين فـي المهجر، ومخـاوف الحكومـات الغربيـة مـن انخراطهم في العنـف الإرهابي، ويدعو الـدول الغربية والمجموعـة الدولية إلى مساعدة المسـلمين، رجالا ونساء، لأنهم يدفعون ثمنا باهظـا عن صمودهم أمام العنـف الجهـادي ورفضهـم الانخراط فـي "نمط حياة يقوم علـى إبادة الآخر، ولو كان مسـلما"، حتـى لا يحكم عليهم بالهجرة والتغرّب هربا من المتشددين.

الإبادة جريمة بشعة (لوحة للفنان عمران يونس)

منفذو أوامر القتل لهم ملامح مختلفة (لوحة للفنان سيروان باران)

> **ريشار ريشتمان توسّل بالأنثروبولوجيا العامّة للإحاطة بالظروف الاجتماعية والسياسية لجرائم الإبادة وتحديد ملامح واضحة لصورة الجلاد**

> **لئن كانت صورة الجلاد الذي فقد كلّ حسّ إنسانيّ تبهر بقدر ما تثير الاشمئزاز فإنها لا تعكس الحقيقة كلها**